شؤون اجتماعية
العدد ٥٧
ربيع ١٩٩٨م
السنة ١٥

زنجـبار
الجنسية والعرقية

عـلـي محسن الـبرواني *

تعود الكلمة «زنجبـار» إلى أصل فارسي أو عربي. فالفرس اشتقوا الاسم من كلمتي (زانق وبار) وتعني (الساحل الزنجي)، ومن ناحية أخرى استخرج العرب الاسم من العبارة العربية (زين ذا البر) أي: **(الأرض الجـميلة)**. وهو وصف يعكس تماماً تلك الصورة الجميلة لهذا الجزء من أفريقيا، وفي أوائل القرن العشرين. وماكادت عينا أحد الزوار تقع على هذه الجزيرة حتى أطلق صرخة دهشة واعجاب *«ليس هناك بالقطـع... مكان أجـمل من هذه على الأرض»*. وهو اعجاب يشاركه فيه الكثيرون من المسافرين إلى هذه الجزيرة الواقعة في المحيط الهندي.

وكان يطلق اسم «زنجبار» على كامل ساحل أفريقيا الشرقي بالاضافة إلى الجزر المجاورة من الصومال إلى موزمبيق، وحتى بعيداً داخل عمق زائير. وقبل ذلك كان يعرف هذا الساحل باسم ساحل AUSAN، وقـد سُمي هكذا باسم أول مملكة قامت في الجـزيرة العـربيـة، وقامت على

* وزير دولة سابق في دولة زنجبار.

امتداد هذه المنطقة. وفي مختلف مراحل تطورها، تطورت العديد من المدن... وكل مدينة كانت عملياً دولة قائمة بذاتها. وكانت تنشب بينها المنازعات أحياناً ويسود بينها روح التعاون في أحيان أخرى. وبين الفينة والأخرى قد تعترف مختلف الدول المدينية بتفوق إحداها وهكذا تأخذ مكان المقدمة بين الأنداد كما حدث ذلك بالنسبة إلى سلطان زنجبار. وفي الواقع فقد كانت هذه الدول المدينية تقوم بأداء قسم الولاء حتى لسيادة سلطة خارجية كما فعلت مع حكام اليمن القدماء وإمام عُمان وخليفة الإسلام ثم الحكام البرتغاليين والتاج البريطاني.

وكان مألوفاً أيضاً أن تقوم علاقات متبادلة بين مختلف هذه الدول المدينية مثلما حدث في حالة حسن بن علي بأبنائه الستة القادمين من شيراز والذين كونوا سوياً أمبراطورية ما بشكل أو بآخر. وكانت تعرف باسم «دولة الزنج» أو «امبراطورية الزنج». إن هذا النمط كان قائماً وإلى حدما لايزال قائماً في مختلف الدول الأوروبية. وهكذا... حدث أن أصبحت لكل من آل بوسعيد من زنجبار والمزاريع من ممباسة والنبهاني من باتي والبني هاشم من بانجاني وزنجبار وجزر القمر، علاقات بحضرموت وعُمان. وماحدث بالنسبة إلى باقي السكان... فالتمازج هو تقليد جرت عليه الحياة منذ القدم. واستمرارية هذا التقليد، هي ضرورة تاريخية.

وفيما يتعلق بمدى نفوذ هذه الدول الساحلية على الجزء الداخلي من أفريقيا فإن الأمر هنا يتوقف على عوامل متفاوتة مثل القوة والفطنة السياسية للحكام. أو حب المغامرة وشجاعة واقدام التجار الرواد الذين كانوا يفتحون تلك المجاهل تحت حماية أمثال أولئك الحكام وهكذا.. أصبح من الطبيعي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، أن يردد أي شخص مقولة: *«عندما يعزف أحدهم على المزمار في زنجبار. فالآخرون على حوافي البحيرات يرقصون»*.

وعندما أقام سعيد بن سلطان مركز سلطته في زنجبار كعاصمة له، امتدت هذه السلطة لتغطي ليس فقط الساحل والجزر وإنما أيضاً تنجانيقاً بكاملها وملاوي وزائير وحتى الحدود السودانية حيث لامست سلطنة محمد علي الكبير حاكم مصر والسودان وقتئذ.

وقد أُذهل ابن بطوطة، الرحالة والمؤلف العربي الشهير، كثيراً عندما قام بزيارة شرق أفريقيا في القرن الرابع عشر وشاهد أن الشعب السواحيلي يسكن في منازل جديدة ويلبس ويأكل تماماً كما كان يفعل الأوروبيون في ذلك الوقت... ومن ناحية أخرى، يصف وليام هجز Dr. William Hichens تلك الحضارة في كتابه: «ا لإسلام

اليوم» بقوله: *مع انبثاق فجر القرن الرابع عشر. كانت قلاع الإسلام الجميلة، تقف في زهو كعقد اللؤلؤ كثير اللمعان، وعلى امتداد ذلك الساحل المتحضر الساحر.*

فيما يتعلق بالمستوى الثقافي فإنه يقول: *«ربما كان المرء يقاس بما لديه من ثروة في مستودعه... وبما لديه من مخزون عقلي كشاعر. أو حجة كعالم فقه وشريعة في الجوانب القانونية. أو لاهوتي، يحتل - ولاشك - تلك المكانة الرفيعة من الاحترام والتبجيل وهذه المكانة كان يطلق عليه في تلك الجزر اسم* **«هيشيما»**، *أي الحشمة... فالعرب الأوائل جاؤوا ومعهم فن الكتابة وهو فن لم يكن يعرف في أفريقيا البانتو. وأيضاً جاؤوا ومعهم حبهم التقليدي لفنون الشعر».*

وكيف حدث ذلك؟ يسلم البروفيسور «كوبلاند» في كتابه: **«شرق أفريقيا وغزاتها»**، بأن: *شرق أفريقيا لم تر من العرب فترة فتوحات سوداء، لقد كان كله دخول سلمي إلى تلك القارة.* ويشرح الكاهن ليندون هارس في كتابه: **«الإسلام في شرق أفريقيا»** قائلاً: *«يعتمد الإسلام كلية في عملية نشر الدين الإسلامي على نفوذ جماعة المسلمين... فعندما يتم القضاء على الفوارق الطبقية، فإن التقدم باتجاه الاهتداء لاعتناق الإسلام. يزداد سرعة، ولعل هذا مايوضح لنا أن موجات المد الإسلامي من جنوب الجزيرة العربية وبلاد فارس، باتجاه أفريقيا، قد أثمرت عن تحولات كبيرة من الوثنية إلى الإسلام... فمن خلال الارتباط بالزواج من نساء البانتو، وجد التجار العرب في شرق أفريقيا الموطن المناسب ليس فقط لأنفسهم... وإنما أيضاً لدينهم. إن السواحليين الحقيقيين هم الذين يشكلون شعب البانتو، ولقد تم ردم الفجوة الاجتماعية بين العرب والبانتو وامتدت بينهم الجسور. وهي جسور يتوق الكثيرون من الأفارقة إلى عبورها. فبالنسبة لهم إن هذه الجسور لاتقود فقط إلى مكة المكرمة.. ولكن أيضاً إلى اللقاء بأخوة الإيمان، وهناك على الأقل رابطة الدم المشترك».* وعلى كل حال... فلابد هنا من الحذر الدائم من عمليات الخداع من قبل ذلك البعض الذي ظل بمنعه وولائه العنصري من بناء مثل تلك الجسور التي قلنا بها، وهو هذا الحاجز العنصري الذي وقف دائماً حائلاً دون تمازج الأعراق المختلفة.

السجلات القديمة.

عندما قام رحالة ومؤلف يوناني من مصر. بزيارة شرق أفريقيا حوالي القرن الأول الميلادي، وجد أن العرب كانوا سلفاً يقيمون في ذلك الساحل والجزر التابعة له. كما

أنهم اعترفوا بسيادة ملك اليمن عليهم ووفقاً لكتابات هذا المؤلف في كتابه: The Periplus of the Erythrean Sea، فإن أولئك العرب أقاموا في شرق أفريقيا لقرون قبل تلك الزيارة التي قام بها ذلك الرحالة اليوناني. وتزاوجوا مع السكان المحليين. وبهذا الدليل التاريخي، يصبح واضحاً أن العرب أقاموا في شرق أفريقيا لأكثر من الفي سنة (جون جراي. تاريخ زنجبار، الصفحتان ١٠ - ١١). وفي كتابه: «زنجبار - تاريخها وشعبها»، يقول: دبليو اتش انجرام W.H Ingram، مستشهداً بالكاهن دبليو إيه كرابتري W.A Crabtree، إنه وحوالي أربعة آلاف سنة مضت، وصل العرب الذين كانوا يعرفون لدى قدماء المصريين باسم: «آمو» و«عرابين»، إلى شرق أفريقيا. ويقول إنجرام: «*بعض أولئك الناس واصلوا تجوالهم داخل أفريقيا ... والبعض الآخر تتبعوا الساحل*». وهنا يدعي كرابتري بأن أولئك الذين توغلوا داخل أفريقيا فقدوا جنسيتهم واصبحوا يشكلون أصل الحاميين، والبقية أُطلق عليهم (العرب). إن الكلمة المصرية «عرابية» تعني بوضوح «عرب». ولكن ألا ترى أن هناك ثمة ربطاً خادعاً بين الكلمة المصرية القديمة «آمو» كناية عن العرب. واسم الجزيرة «أموا» كما يطلق عليها السكان...؟ إن الكلمة لآمو هي مجرد تحريف للكلمة العربية «الامو».

في العام ١٤٠٠ قبل الميلاد، أرسل الملك رمسيس الثاني - ملك مصر - حملة مكونة من الرجال الفينيقيين إلى شرق أفريقيا. ويفترض أن تلك الحملة قد وصلت إلى جزيرة مدغشقر، وأيضاً قام الملك نيكو وهو من الأسرة السادسة عشرة (٦٣٠ - ٥٢٧ قبل الميلاد)، بارسال حملة أُخرى دارت حول رأي الرجاء الصالح، واتجهت شمالاً على امتداد الساحل الغربي من أفريقيا إلى داخل البحر الأبيض المتوسط من خلال مضيق «جبل طارق»... ثم واصلت سيرها حتى عادت مرة أُخرى إلى مصر بعد رحلة استغرقت ثلاث سنوات. وخلال هذه الرحلة، وعند التوقف في كل مرفأ، كان أولئك الرجال يقيمون لفترة كافية تمكنهم من زراعة ثم حصد القمح. وهنا ربما يفترض - وهذا لم يرد في المدونات التاريخية - بأن أولئك الرجال ربما يكونون أيضاً قد أنجبوا أطفالاً في تلك المناطق التي كانوا يتوقفون عندها لزراعة القمح... وهي ذات الطريقة التي اتبعها أسلافهم من أفراد قبيلة «الصورى» العُمانية فيما بعد... ويدعي هؤلاء أن نسبهم يعود إلى الفينيقيين. وقد كان أفراد هذه القبيلة وعلى مدى عصور، يجوبون الساحل الشرقي من أفريقيا، وهنا يأتي الافتراض بأنهم أيضاً أنجبوا أطفالاً على امتداد هذه المنطقة الساحلية التي تشمل: لامو وزنجبار وجزر القمر. وكان الفينيقيون يطلقون على أنفسهم «خنا» أو «كنعان»... وهي قبيلة عربية معروفة. ومن خلال هؤلاء

الفينيقيين، استمد أفراد قبيلة الباجوني والواتمبات الذين يعتبرون من البحارة البواسل في شرق أفريقيا في فن الملاحة.

ويقول «كيبل شاترسون» في كتابه: «**السفن الشراعية وقصتها**». *«عندما دار فاسكو داجاما حول رأس الرجاء الصالح وتوقف عند مرافئ ساحل أفريقيا الشرقي، وجد أن فنون الملاحة معروفة تماماً من قبل البحارة في ذلك الجزء من أفريقيا مثلما كانت معروفة لديه. وهذا فيما يبدو يشير إلى أن الأفارقة قد وصلوا قبل سنوات مضت إلى تلك المرحلة من التقدم التي تمكنهم من الابحار بالسفن الشراعية وهي ذات المرحلة التي اكتسبتها سلفاً تلك الأجزاء من العالم الأكثر حضارة».*

وهكذا... وبينما وصل فينيقيو البحر الأبيض المتوسط حتى كورنول في انجلترا من أجل القصدير، فإن نظائرهم من العُمانيين اتجهوا بسفنهم الشراعية حتى وصلوا إلى جزر القمر والصين من أجل سلع أُخرى متنوعة، كما أن اولئك البحارة من تومبانو ولامو انطلقوا بهدوء يجوبون الجزء الغربي من المحيط الهندي من موسم إلى آخر بين شرق أفريقيا والهند والخليج العربي وإيران. وقبل جيشان عام ١٩٦٤ كان مرفأ زنجبار يتسع إلى مايصل لـ ٢٠٠٠ سفينة شراعية قادمة من الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية مع فصل الرياح الموسمية. وهناك أدلة كافية من حيث اللغة والتقاليد والتي تشير إلى وجود علاقة وثيقة بين السواحليين في شرق أفريقيا والآشوريين، وذلك قبل أربعة وخمسة آلاف سنة مضت. وأيضاً مع السومريين قبل خمسة أو ثمانية آلاف سنة مضت. لقد كان قدماء العراقيين على درجة رفيعة من الحضارة. وقد اشتهر نهرا دجلة والفرات باعتبارهما مهد الحضارة. ويعتقد أن فن الكتابة قد رأى النور أول مرة هناك في العراق، ويستشهد انجرام بالعديد من التشابهات اللافتة للنظر في طريقة التلفظ والمعنى بين اللغتين السومرية والسواحلية. ومثال على ذلك: فالكلمة زى التي تشير باللغة السومرية إلى كلمة روح، نجدها باللغة السواحلية مزيمو... وماعز في اللغة السومرية هي أوز، وفي اللغة السواحلية هي مبوزى وفي اللهجات الخليجية على مستوى البلدان العربية وبلاد فارس، نجد أن الماعز المحشوة بالأرز يُطلق عليها عادة قوزي. والرجل باللغة السومرية هو مولو، بينما في اللغة السواحلية هو متو. أو نجده في لهجات البانتو الأخرى مونتو. ويمكن للشخص أن يستشهد بأمثلة تاريخية وثقافية وروابط عرقية لاحصر لها بين شرق أفريقيا والشرق الأوسط.. وذلك منذ قديم العصور وحتى يومنا الحالي، وهو مايثبت دون أدنى شك بأن هناك روابط لاانفصام بينها بين

من يقولون بأنهم زنجباريون أو سواحليون. وحول علاقة زنجبار الماضية مع الهند، فلقد كان معروفاً بأنه كان هناك بعض الناس من المسالمين قدموا من الساحل الهندي الغربي وأقاموا بجزيرة زنجبار في الفترة بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر، وهؤلاء هم مايطلق عليهم Wadebule. وهنا ينبغي ألا يحدث خلط بين هذه الجامعة ومجموعة أُخرى من المستوطنين الذين يبدو أنهم حكموا بيمبا وبوجيني بصفة خاصة... وكان يطلق على هؤلاء (واديبا Wadiba)، ومن أكثر حكام هذه المجموعة الأخيرة شهرة كان محمد بن عبدالرحمن الملقب بـ«مكام ندوم» وهو لقب اعتقد أنه ترجم خطأ عن كلمتي «مستحلب الرجال»، وهو مايعكس السمعة التي التصقت به بأنه كان يصدر أوامر قاسية وعصية التنفيذ. ولكن «مكام ندوم» تفتقر إلى الدقة في كونها سواحلية على الأقل من الناحية الصوتية، وربما تكون كذلك قد اشتقت من الكلمات «ماكامو ومادوم»، والتي ربما قصد منها أن تعني: «المراقب أو المشرف على الذكور» أو «حاكم الرجال».. وهذه تقابل بشكل أو بآخر لقب كيجاندا الذي يطلق على الكاباكا «سيبا ساجا».. وتعني: «فوق الرجال»، وهو بديل غير دقيق لكلمتي صاحب السمو أو الجلالة. إن الكلمة السواحلية ماكو، والاسم «ماكام» مشتقان من الكلمة العربية «مقام»، وتعني: المرتبة أو المكانة. وتستخدم هذه الكلمة في التعبير السائد مثل: «صاحب المقام الرفيع».

ووفقاً للأدلة الآثارية، فإن Wadbebule هم جماعة من دابهول. وهي مرفأ في ساحل الهند الغربي، وتبعد حوالي ١٠٠ ميل إلى الجنوب من بومباي.

وخلال الفترة الممتدة بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر، كان هذا المرفأ يحكم من قبل الأُسرة البهمانية... وفي هذه الفترة كانت توجد هناك مجموعات كبيرة من الأفارقة من شرق أفريقيا في ذلك الجزء من الهند. وكان هؤلاء الأفارقة يعرفون محلياً بـ«سيدبس»، وهذه مأخوذة من الكلمة العربية «سيدي». وهي تعكس ماكان يتمتع به الأفارقة من احترام هناك... ويقول عنهم سيرجون جراي بأنهم: «*لعبوا دوراً بارزاً في النزاع السياسي الذي أدى في النهاية إلى سقوط الأُسرة البهمانية وتقويض مملكتهم*».

وفيما يتعلق بالواديبا. فإن سيرجون جراي يفترض بأنهم قدموا من جزر المالديف، والتي كانت تُعرف لدى العرب، حسب اعتقاده. بـ«دبا»، ومن جانبي لم استطع التحقق من هذا الافتراض، ولكن مما نعرفه الآن هو وجود دبا في الخليج العربي وتتقاسمها عُمان وإمارة الشارقة، وهي مدينة ساحلية. وهكذا يبدو منطقياً الاعتقاد بأن «واديبا»

بوجيني الذين تنسب إليهم العديد من المساجد التي قاموا ببنائها. هم في الأصل قدموا من دبا هذه التي تقع على الخليج العربي، وقد عُرف عن هؤلاء الناس تمسكهم والتزامهم بأمور دينهم الإسلامي.

العلاقة مع بلاد فارس.

ليس هناك ثمة شك في أن التأثير الثقافي والعرقي من قبل بلاد فارس أو مايُعرف الآن بـ«إيران»، قد ظل كبيراً على زنجبار وعلى كامل الساحل الشرقي من أفريقيا... فمناسبة عيد الاينروز يحتفل بها على نطاق واسع في زنجبار وأيضاً في العديد من الجزر الواقعة على الساحل الشرقي... إن غالبية الناس هنا الواهاديمو، والواطمباتو، والوابيمبا... يطلق عليهم كلمة «الواشيرازي». وهم الذين يقولون بأنهم أحفاد المهاجرين الأوائل من شيراز في إيران.

في العام ١٩٥٥، ذكر السير جون جراي رئيس القضاء في زنجبار وقتئذ، في تقرير له ضم تحريات أجراها حول ادعاءات تتعلق بأرض مما في بيمبا التالي: «*من أجل الرغبة في اسم أفضل. صار مألوفاً أن يطلق على الفترة التي سبقت مجيء البرتغاليين (الفترة الشيرازية)، وعلى أولئك الذين كانوا يقطنون بيمبا. والذين كانوا يدعون بأن نسبهم يعود إلى أولئك المستعمرين الأوائل الشيرازيين*».

ولكن الصورة الحقيقية لايمكن التوصل إليها بهذه البساطة... ودعونا نبحث في الأمر بتحليل أكثر مما ورد حتى الآن. فالقصة السائدة أكثر من غيرها تقول إن: «*أميراً من شيراز اسمه حسن بن علي وأبناءه الستة وصلوا إلى شرق أفريقيا حوالي العام ٩٨٥ ميلادية واستقروا في أماكن عدة، وفي بعض الجزر على الساحل*». وهذه القصة قد جاءت وفقاً لعرض عربي للأحداث التاريخية في تلك الفترة. وقد وجد في كيلوا. ورواية تاريخية أُخرى عثر على تفاصيلها في بيمبا تقول: «*إن سلطاناً من شيراز يحمل اسم دارهاش بن شاه لجأ إلى مغادرة وطنه هرباً من المجاعة، وكان برفقته إثنان من اخوانه واخته وعدد آخر من جيرانه وبعض العبيد. وقام ابن عم له يُدعى شيم بن علي، بترتيب اقامته في بيمبا*». وتضيف الرواية: «*إن ابن عم آخر لدارهان يدعى داوود بن علي. وأيضاً ابن عم ثالث له واخت دارهان (خديجة بنت شاه). قدموا واستقروا في زنجبار وكيلوا والبر الرئيسي من تنجانيقيا. واستقر طفل خديجة ومعه فتاة جارية تدعى تانو بنت شاه في طومباتو*».

الوطومباتو Watumbatu.

من العسير القول بأن روايتي كيلوا وبيمبا تتحدثان عن نفس الحادث. أو أنهما تتحدثان عن حادثين منفصلين وقعا في نفس الفترة. ولكن كل الذي نستطيع التيقن منه هنا هو أن هناك بعض الناس قدموا إلى شرق أفريقيا من شيراز واستقروا هنا بشكل دائم، وكان ذلك قبل حوالي ألف عام مضت. وفي كتابه: «**زنجبار - الجزيرة العاصمة لشرق أفريقيا**». يقول الرائد أف. بي. بيرسي، وهو مواطن بريطاني الجنسية كان يسكن في زنجبار.. مستدلاً في ذلك بالقاموس الجغرافي لـ«ياقوت بن عبدالله الرومي»: «*يبدو محتملاً أن مدينة طومباتو كانت حقيقة هي المدينة الأولى التي أسست في زنجبار، وهنا علي أن آخذ بالظن بأنه وعندما كانت تأتي الاشارة في تاريخ كيلوا (الزنجبارية) والسلطان كذلك، فإن اسم طومباتو نفسها كان يرد أيضاً، رغم أن مجرد اسم هذه المدينة التي أصبحت خراباً، قد اندثرت وتم نسيانها تماماً*».

وحسب ماجاء في كلمات الأندبييرس، فإن ياقوت أوضح بأن: «*أهل جزيرة طومباتو كانوا مسلمين منذ أوائل القرن الثالث عشر... ثم إن سكان لينجوجا المجاورة (ولينجوجا اسم سواحلي يطلق على زنجبار)، كانوا نزاعين إلى التوجه نحو طومباتو طلباً للسلامة من الأعداء... وفي طومباتو توجد الأطلال التي تتحدث عن تلك المدينة الكبيرة التي شيدت من الحجارة*».

نقاط جديرة بالملاحظة.

١ - هناك بعض المبررات في أدعاء الواطومباتو الخاص بوجودهم، ومنذ قديم العصور في زنجبار، وحقهم في تقرير المصير المتعلق بشؤون البلاد وكمثال على ذلك، فإنه وعندما ارتفعت أصوات بعض الجماعات في الخمسينات من هذا القرن بهدف عزل السلطان ووضع حد للملكية. غضب الواطومباتو واحتجوا بأن البلاد هي بلادهم. وبأنها ومنذ أن كانت فإنهم هم الذين كانوا يستنفرون السلاطين الأسلاف بأن يهبوا وينقذوا البلاد من بطش البرتغاليين. وعليه فالوطامباتو وحدهم هم الذين يملكون حق ازاحة السلطان ولا أحد غيرهم. وفي حقيقة الأمر، فإنهم قد ظلوا يعتبرون الأسرة المالكة جزءاً منهم وفي السنوات الأخيرة. وجد هذا الاعتقاد دعماً كبيراً من الأمير سيد سعود، ابن السلطان علي بن حمود (١٩٠٢ - ١٩١١)، الذي كان متزوجاً من فتاة من الواطومباتو، وكان يعتبر نفسه واحداً من أفراد القبيلة.

٢ - ونقطة أُخرى جديرة بالملاحظة. وهي أن الواطومباتو - ويعكس الادعاءات الشائعة عنهم من قبل الأجانب المولعين باختلاق الأكاذيب، والمهاجرين من سكان المدن الساخطين - لم يطردوا خارج جزيرة يونجوما الرئيسية... وعلى العكس من ذلك تماماً. فالمؤشرات تقول بأن جزيرة طومباتو الصغيرة، كانت هي الأولى التي حدث فيها استيطان ومن ثم تم تطويرها. وقد كانت طومباتو هي العاصمة الأولى لزنجبار وبعدها تم إنشاء العاصمة بونجوجاكوو. وهذا المكان الأخير كان هو حاضرة ملك زنجبار، التي دخلتها السفينة البرتغالية الثانية في العام ١٥٠٣، ووفقاً للروايات البرتغالية فلقد كان سكان زنجبار من أُناس كعرب المغرب وكانت تلك السفينة بقيادة لورينكور.

إن زعماء طومباتو. من ناحية أُخرى. يبدون الكثير من الحماس تجاه ماتبقى من ماضيهم... ولايكتفون فقط بتنظيف بعض الأطلال المهمة من الحشائش العالقة بها وحولها. بل انهم يختزنون الكثير من القصص حول ماكانت تمثله تلك المباني المختلفة في ماضيها وحول الناس الذين قاموا بتشييدها، وأحد أولئك الذين حادثوني جاء بشجرة النسب التي تظهر مالايقل عن ٥٧ جداً من أسلافه.

ووفقاً لتلك المعلومات التي حصل عليها بيرس من ذلك الشخص الذي عرض ذلك العدد الكبير من أسلافه فإن أول شخص استوطن في طومباتو كان أميراً من شيراز، وقدم إلى الجزيرة من بوشير Bushire... وقد عُرف باسم يوسف بن سلطان بن ابراهيم العلوي. وفي طريقه خارجاً من بلاد فارس، أقام أولاً في مركا بالصومال لمدة كافية مكنته من بناء مسجد وهنا تبرز نقطتان لهما أهميتهما: اسم هذا الأمير القادم من شيراز، يظهر أنه كان ينتمي إلى عشيرة عربية. هذا إذا لم يكن من أصل هاشمي. وهو الاحتمال الأقوى... وهذا يعكس روح ذلك الادعاء بأن الشيرازيين الذين قدموا إلى شرق أفريقيا. كانوا في حقيقة الأمر عرباً من الحسا في مايعرف الآن بـ(المملكة العربية السعودية). وفي الواقع وحتى اليوم نجد المنطقة الإيرانية المتاخمة للعراق تُعرف باسم عربستان، ومعظم سكانها من الجزيرة العربية. والنقطة الثانية هي: انه وقبل نصف قرن من وصول أول شيرازي إلى شرق أفريقيا. كان بنو الحارثي Alharth، القادمون من عُمان قد وصلوا واستوطنوا في ساحل وجزر شرق أفريقيا وأسسوا مدناً مثل مقديشيو وباراوا. وذلك قبل أن يقيموا بشكل نهائي في زنجبار في وقت مبكر يعود إلى العام ٩٢٤ ميلادية ومن الملفت ان الصوماليين يلفظون كلمة باراوا باختصار شديد كقولهم براوا، وذلك تماماً كما يطلق الحارث على مدينتهم في عُمان اسم «برا» وليس ابرا كما هو معروف للأجانب.

وفي الفترة السابقة إلى مجيء الحارث من عُمان، كان هناك آل أزد... الذين تحدرت منهم عشيرة الـ«بوسعيد» التي ارتقت سدة السلطة السياسية في القرن الثامن عشر، ويشكل آل أزد مجموعة من القبائل في عُمان. وهؤلاء مثلهم في ذلك مثل عرب الخليج الآخرين. فقد جاؤوا أصلاً من اليمن، ثم إن تاريخ هجرتهم إلى شرق أفريقيا يعود إلى فترة سابقة لوصولهم إلى عُمان وبلدان الخليج الأخرى. وتقول رواية أُخرى عن تاريخ طومومباتو، إنه وفي العام ٦٠٠ للهجرة (حوالي ١٢٠٤ ميلادية). وصل سلطان مايدعى يوسف بن علوي من قبيلة Ahdalai أهدالي، أو علوي. من البصرة... وهذا السلطان هو الذي قام ببناء الماكوتاني «الجدران»، والتي لاتزال بقاياها موجودة حتى اليوم، وفي حوالي نفس الفترة قدم رجل أفريقي يُعرف باسم «شونجو» وأقام في شونجو وي وهي مايُعرف الآن بـ«جو نجوى» في جنوب الجزيرة. ومع مرور بعض الوقت شب نزاع بين الجماعتين، ولكن في النهاية تم الاختلاط والتزاوج بين أحفادهما وأثمر ذلك عن السكان الحالين لجزيرة طومباتو. إن كانت هذه القصص التقليدية أو الأساطير التي تم تناقلها من خلال الأحاديث أو التي سجلت كعرض للأحداث التاريخية على ذلك النحو. تتسم بالتبسيط المغالى فيه لأنماط من الأحداث كانت أكثر تعقيداً والتي امتدت لفترات زمنية طويلة. شملت العديد من العائلات وحتى المجموعات القبلية. وعلى كل حال... فإن مايهم هنا ليس هو الاسم الحقيقي لمؤسس أول مستوطنة في طومباتو أو انتماؤه لعشيرة آل العلوي، أو آل اهدالي، أو ماإذا كان قد جاء من شيراز في إيران أو من البصرة في العراق.

الوهاديمو Wahadimo.

وتدَّعي قبيلة الوهاديمو أيضاً بأنها تنتمي في الأصل إلى شيراز... وموطن هذه القبيلة التقليدي هو جنوب وشرق يونجوجا. إن سكان دونج ورغم أنها – جغرافياً – تقع في الشمال، فإنهم يعتبرون أنفسهم بأنهم ينتمون إلى الواهاديمو أكثر من انتمائهم إلى جماعة الواطومباتو. وكما هي الحال بالنسبة إلى الواطومباتو... فإنه يصبح من المبالغة في التبسيط القول بأن الواهاديمو ككل تحدروا من عائلة واحدة من المهاجرين من شيراز... فعبر قرون من الزمن كانت هناك العديد من الجماعات المستوطنة التي تناسلت وغرست ثقافتها، وكانت النتيجة هي تلك القبيلة. وفي الواقع فأن قبيلة الواهاديمو لم تعد أكثر تجانساً من الجماعات الأُخرى، وهناك ثمة شك في أن تكون جماعات مختلفة من الناس من القارة الآسيوية وأُخرى من البر الرئيسي الأفريقي ساهمت في تشكيل قبيلة الوهاديمو الحالية. ومن ناحية أُخرى. وفي حين تشير

المدونات التاريخية القديمة إلى أن الوهاديمو كان يطغى عليهم في الماضي المظهر الآسيوي بشكل واضح. إلا أنه وفي السنوات الأخيرة تطورت الكثير من العلاقات وبالتالي تم اختلاط الدم بينهم وبين الأفارقة في البر الرئيسي. ولدى وصول البرتغاليين أول مرة في وقت مبكر من القرن السادس عشر، وجدوا سكان يونجوجا يوكوو. والتي كانت عاصمة زنجبار، كان يبدو عليهم بأنهم عرب أو «بربر» كما كانوا يطلقون عليهم. ولكن... وفيما يتعلق بالسنوات اللاحقة، فقد كتب سيرجون جراي قائلاً: «من الملفت ملاحظة أنه وعلى مدى فترة سنوات عديدة، ظل هناك ثمة تدفق من القادمين الجدد من البر الرئيسي عن طريق بونجوجا بوكون (والتي يبدو أنهم اتخنوها كمحطة عبور)، وهكذا... فإن سكان قرى: شواكا Chwaka، مابوبوي Mapopwe، ساروي Charawe، يوكونجر Ukongoroni، وكاميشامفي Michamvi. يسلمون بأن أسلافهم دخلوا إلى الجزيرة العربية من البر الرئيسي عن طريق يونجوجا يوكوو UngujaUkuu. وعلى كل حال، فمن المؤكد أن الواهاديمو، وحتى وقت قريب... ظلوا محافظين على علاقاتهم. مع أسلافهم في الجزيرة العربية، كما أشار بذلك حاكمهم الأخير Mwinyi Mkuu أو أحمد بن محمد بن حسن العلوي. الذي ولد في العام ١٧٨٥، وتوفى في العام ١٨٦٥. ومع قيام البرتغاليين بتدمير يونجوجا نوكوو. تراجع السكان إلى كيزيمكازي Kizimkazi، وأعادوا بناء مستوطنة قديمة هناك تعود إلى العرب أو الفرس. وهنا لاتزال توجد بقايا من قلعة والقليل من القبور على الساحل ومسجد أُعيد ترميمه. وقد تم بناء هذا المسجد قبل حوالي ٩٠٠ سنة، وعلى جدران محراب المسجد توجد كتابة بالخط الكوفي تقول: «هذا مأمر به المبجل وصاحب المكانة الرفيعة الشيخ السيد أبو عمران موسى بن الحسن، أمده اللّه بطول العُمر ونصره على أعدائه - في يوم الأحد من شهر ذي الحجة في المائة الخامسة من الهجرة - الموافق شهر أغسطس ١١٠٧ ميلادية».

وابمبا Wapemba.

يصف ياقوت بن عبداللّه الرومي في قاموسه الجغرافي «**معجم البلدان**»، جزيرة بمبا في القرن الثالث عشر كما يلي: الجزيرة الخضراء - إنها جزيرة كبيرة ففي أرض الزنج في المحيط الهندي. إنها طويلة وواسعة. المياه المالحة تحيط بها من كل جانب. وتوجد مدينتان، ويطلق على احداهما اسم ماتومبيني Matumbini، والأخرى اسم مكمبوو Mkkumbuu. وكل من المدينتين لها سلطانها الذي يحكمها وتتمتع كل منهما باستقلالها الكامل. وهناك أيضاً عدد من القُرى والأسواق. ويقول

سلطان (الجزيرة): إنه قد جاء إلى هذه الجزيرة من الكوفة (في العرق). ولقد أخبرني بذلك الشيخ سالم عبدالملك الحلاوي الذي قدم من البصرة. لقد شاهد ذلك بعينيه، إنه رجل أهل للثقة، إن ماتومبيني هي جزيرة تقع إلى الجنوب من ميناء مكواني... كما أن رأس مكمبوو تقع عند نهاية برزخ طويل وضيق في الساحل الغربي من بيمبا عند المدخل إلى شيك شيك. وفي مكمبوو أو أنداجوني Ndagoni، توجد هناك بقايا مسجد، وهو المسجد الذي يعتبره عالم الآثال جي. اس. كبيركمان *«ثاني أجمل جامع في أراضي تنجنيقا وكينيا وزنجبار»*. وتوجد هناك أيضاً قباب ذات أعمدة وبعض المساكن. وفي يوجيني على ساحل بيمبا الشرقي. وتوجد بقايا مباني محمد عبدالرحمن الدبوي. إن أُسرة هذا الرجل حكمت جزءاً من شرق بيمبا منذ نهاية القرن الخامس عشر، وحتى بداية القرن السابع عشر. وينسب إلى الواديبا ادخال أشجار جوز الهند، وعملية بناء المراكب الشراعية (ميتيبي)، من خلال ربط الواح الخشب مع بعضها بالحبال بدلاً من استخدام المسامير. وهذه الطريقة متبعة حتى الآن لدى الواجونيا أو الباجوني. وكان يطلق على الـMsasani في دار السلام، ربطة (Rabta) في تلك العصور القديمة وهي مأخوذة من الكلمة العربية (ربط). ومن هذه جاءت الكلمة السواحلية روبوطة (Robota) أي ربط.

أولئك الديباويون الذي حكموا جزءاً من بيمبا لمدة قرنين من الزمان، وتركوا آثارهم في البناء وفي الأحفاد وسط سكان الجزيرة - من أين جاؤوا؟ يفترض سيرجون جراي بأنهم قدموا من جزر المالديف، وهي الجزر الواقعة في المحيط الهندي والجزيرة العربية وأفريقيا. ويقول إن جزر المالديف كانت معروفة لدى العرب باسم «دبا». وهي إذا كان ذلك حقيقة. وانا لم استطع التحقق منه من مصادر عربية. فلماذا لايكون هذا الاسم عائداً إلى «دبا» الأصلية - أي «دبا» الحالية التي تتقاسمها كل من عُمان والشارقة. وحتى إذا كانت المالديف معروفة لدى العرب باسم «دبا». فالأمر هنا لايعدو كونه استعارة مثلما هو وارد بالنسبة إلى «سشيراز» في كيناي، و«الطائف» في بيمبا أو المرسي Marseilles في يونجوجا في كوامباني في زنجبار.

إن سكان بيمبا. مثلهم في ذلك مثل سكان يونجوجا وطومباتو.. هم خليط الخليط. ومن مجموعات مختلفة جاءت واستقرت وتزاوجت وانجبت هؤلاء الناس الذين يقطنون في زنجبار اليوم... فالسومريون والآشوريون من العراق والفراعنة المصريون والفينيقيون والعرب والشيرازيون والبانتو والأحباش والصوماليون والقمريون (القادمون من جزر القمر)، والهنود والواديبا والواديبول والبرتغاليون والبلوش والأكراد والجورجيون

الجراكسة والصينيون والسيريلانكيون... كل هذه المجموعات العرقية جاءت عبر المحيط من الأماكن القريبة، وتلك النائية لتشكل هذا المزيج من الناس الذين يعرفون اليوم باسم الزنجباريين. إن هذا المزيج من الناس يصعب معه دائماً تحديد أو تمييز أصل عرقي بعينه. فالتصنيف العرقي هنا مسألة اعتباطية تماماً، وقد لايلجأ إليها إلا المتعصبون الذين يتشبثون بأوهام عنصرية.

البانتووية - كملاذ أخير عن القومية.

بالنسبة إلى الكثيرين منا. فإن العنصر البانتووي يشكل الملاذ الأخير كبنية للزنجباريين... فاللغة والدم البانتوي تخللا كافة زوايا وأركان المجتمع الزنجباري، فهذا العنصر البانتوي في الواقع هو الأكثر بروزاً من بين العوامل الأخرى وعلى كل حال... فكما هي الحال بالنسبة إلى البيض في أمريكا واستراليا... فإن البانتو ليسوا بالضرورة هم الأحق من غيرهم بادعاء الانتماء الأصلي. وفي هذا الشأن يقول سير جون في كتابه «**تاريخ زنجبار**»: *«إن أساطير وتقاليد معظم البانتو تشير في معظمها إلى أصل شمالي. فمن موطنهم الأول أخذوا طريقهم باتجاه بحيرات أفريقيا الوسطى، ومن ثم إلى الجنوب... وأيضاً باتجاه الشرق إلى سواحل المحيط الهندي... وتقول الأساطير والتقاليد القبلية إن وصولهم إلى البحيرات العظمى حدث في تاريخ لايزال مترسخاً في ذاكرتهم، ويصعب تحديد كم من القرون مضت على أول وصول للمجموعات التي كانت تتحدث بلغة البانتو إلى ساحل أفريقيا الشرقي ومن ثم عبرت إلى زنجبار وبيمبا... وربما يكونون قد وصلوا بعد الاكتشاف الأول للجزر والساحل من قبل أُناس من أصل غير أفريقي... ومن المحتمل بعد عدة قرون من تاريخ ذلك الاكتشاف. إن ساحل أفريقيا الشرقي، كان بالتأكيد معروفاً لدى أهل الجزيرة العربية في القرن الثامن قبل الميلاد، فدولة* Ausan *العربية التي شهدت نهايتها حوالي العام ٧٠٠ قبل الميلاد، قد أقامت علاقات تجارية مع ساحل أفريقيا الشرقية، ومن المحتمل أن تكون قد احتلت جزءاً منه»*.

ويقول دبليو. اتش. انجرام في كتابه (**زنجبار - تاريخها وأهلها**) صفحة ٧٠: *«عن وصول البانتو إلى ساحل أفريقيا الشرقي: حوالي مائة عام قبل بداية الحقبة المسيحية. بدأ البانتو الذين كانوا قد تكونوا كشعب قبل ١٠٠٠ عام من ذلك التاريخ انطلاقتهم من النيل في مسيرة فتحهم الكبير... فلقد كان السكان الأصليون لايزالون في مرحلة العصر الحجري. ولكن البانتو كانوا قد توصلوا*

إلى امتلاك أسلحة من النحاس والحديد وهو أمر ولاشك ساعد بشكل كبير في تقدمهم باتجاه الجنوب، ثم اتجهت نحو الساحل».

ويقول رونالد أوليفر، وجي. دي. فيج في كتابهما «**تاريخ موجز عن أفريقيا**»: «*من الجدير بالملاحظة أن كتاب* Perplus*، الذي يصف ساحل أفريقيا الشرقي وهو الوصف الذي يشمل حتى جنوب زنجبار. لايأتي على ذكر الرجل الأسود. إن (جغرافيا) بطليموس تشير إلى وجوده. ولكن فقط في أقاصي جنوب المنطقة التي كانت معروفة حينئذ، والتي كانت بعيداً إلى الجنوب من موزمبيق الحالية، أما إلى الشمال من الناحية الضمنية على الأقل... فالسكان كانوا من أصول صومالية أو أثيوبية».*

إن كل الذي قلته هنا عن البيئة الزنجبارية ينطبق بذات القدر على كل المجموعات البشرية على ساحل أفريقيا الشرقي، وذلك من جنوب الصومال إلى سواحل كينيا وتنجانيقا إلى جزر القمر. حيث يتحدث الناس هنا باللغة السواحلية بمختلف لهجاتها باعتبارها اللغة الأم. إنهم مزيج المزيج وإن يكن الغالب على هذا المزيج هو الدم البانتوي والعربي إلا أنه يحتوي على جرعات من أصول وسلالات أُخرى لايمكن انكارها... إنها في النهاية، خاصية القدرة على تشرب الثقافة وتمثل الجينات دون احداث خلل في الهوية الأساسية، هي التي تعطي الثقة في استمرارية ورسوخ الجنسية الزنجبارية رغم كل هذا التركيب الضخم من التعددية العرقية.

وقبل عقود مضت. خاطب أول أمين عام للجامعة العربية، عبدالرحمن عزام، الأمم المتحدة بقوله: «*إن العرب ليسوا سلالة واحدة. فكل شخص يعيش معنا، ويتحدث لغتنا، ويأخذ بثقافتنا... فهو عربي*». ويمكن أن ينطبق هذا القول على كل الناس... فليس هناك انجليز عرقيون أو هنود عرقيون... وهكذا فلا عنصرية بما يعنيه ذلك من نقاء الدم.

يقول الكاتب الأمريكي الكبير الكسندر وولكوت، عن الفنان الأمريكي المغني الكبير بول روبسون: «*إنه أعظم وأعذب آلة موسيقية جادت به الحياة في عصرنا. وأنا فخور بذلك أني انتمي إلى جنسه. ألسنا جميعاً أبناء آدم. ومن جنس واحد؟ وولكوت أبيض، روبسون أسود... وكلاهما بشر – أي إنسان*».

يقول الإمام علي كرم الله وجهه:

النـاس مـن جهـة التمثـال أكفـاء   أبـوهـم آدم والأم حـواء
فإن يكن لهم من أصلهم شرف   يفاخرون به. فالطين والماء